

قائلوها عن سنن المؤمنين المتقين ، ولم أكنُ أجهلُ أكثر ذلك ، إلا أنه لم يخطر ببالي ذكرُ ما كنتُ أعرف منه في وقت كتابتي ما كتبت به ، وما كل ما يعرف الانسان يحضره ، ولا تتواتى كل وقت خواطره ؛ على أن الذي جرى في هذا الأمر إنما هو على سبيل التعلم والتفهم . يذكر الذاكر شيئاً قد تقدم صوابه ، فيحتج له ، وعليه فيه حجة قد تركها ، فيكشف السامع لها غطاءه مستبصراً ومذكراً ، فإن كان الحق ضالته وجد ما يبتغي ، وغنم ما وجد ، وإن أنف من الرجوع ، واشتد عليه النزوع ، جحد ما علم ، واجتج لما جهل ؛ لأن كل مطالب يبطل لا يخلو من جهل بما يدعي ، أو جهل بما يعرف ، ولم يُعقد = أعز الله الأمير - مجلسٌ لمناظرة في علم يعطى النظر فيه حقه الا فان المرء فيه باستفادة صواب كان يجهله ، ورجوع عن خطأ كان يعتقده .

ولست أعز الله الأمير بمعصوم ، ومن لم يكن معصوماً لم يكن صوابه بمضمون ، ولا زله بمأمون . وعلى حسب ما جرى تعلق قلبي بمعرفة ما تضمنته رقتي هذه من الأمير ، فإن كان لامتنانه بتعريف ذلك في جواب عنها وجهه جري فيه على عادة طولِهِ وفضله إن شاء الله .

فأجابه ابن المعتبر : إنما أُحِبُّبُ - أعزك الله - أن تكون من الاخوان الذين يتجانون ثمر التناصح فيتذكرون فيتذكرون ، ويتدارسون فيفيدون ويستفيدون ، ففتحت بيني وبينك هذا الباب أدنا لك بالولوج عليّ منه ، واثقا بكمال عقلك في المسارعة اليه ، وصنّت مودتنا عن استحسان مزور ، وتعمد الجحد في إقراره ، وملق مكاشر يظهر التصديق بلا إنكار . ولا يزال الاخوان يسافرون في المودة حتى يلحقوا الثقة فتلقى عصا التسيار ، وتطمئن بهم الدار ، وتقبل وفود النصائح ، وتؤمن خبايا الضمائر ، وتلقي ملابس التخلق ، وتحل عقد التحفظ ، وقد أبعدك الله تعالى من الخطأ لما أشرق نور الصواب ، ولم لا يولى يضطرعان على الحق ، وبالتعب وطىء فراش الراحة ؟ وبالبحث تستخرج دفائن العلوم ، ولا فرق بين إنسان يقاد وبهيمة تنقاد .

ولولا أن الناس اختلفوا متفرقين لاختلّفوا متشاحين ، ولما قصدوا بالسكنى إلا بقعة من الدنيا يتنافسون فيها ، ويتفانون عليها ؛ وخير الاختلاف ما اجتنب معنى التماذي على الباطل فاهتدى فيه بالتبصير . كما روي أن علياً رضي الله عنه حاجٌ عمر رضي الله عنه في المرأة التي وضعت لسته أشهر ، فأراد عمر رجمها فقال له : قد قال الله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » . فرجع عن ذلك عمر وامضاه .

وبالتقليد هلك مترفو الكفار القائلون : « إننا وجدنا أباينا على أمة وإننا على آثارهم مقتدون » . وقال بعضهم : إذا سررتك أن تعرف خطأ مؤدبك فجالس غيره . وقال عمر رضي الله عنه : ليس شيء أضر بالمرء من لجاجه في جهل . وإنما كان يكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل والبحث لشفقته على أمته من نزول مُعْتَرِضٍ يثقل عليهم فيما يسألون عنه ، ثم كره عمر وعلي رضوان الله عليهما ما كان يجري على سبيل التعنت ، ويفارق سبيل التفقه ولذلك قال علي رضي الله عنه لابن الكوّ : سَلْ تَفَقُّهًا وَلَا تَسَلْ تَعَنَّاتًا .

جمع الجواهر